**مصطفى الغرافي**

**مادة: السرد والشعر القديمين لطلبة الماستر المتخصص (الفصل الثالث)**

**الخميس 24-12- 2020**

الخبر عند ابن قتيبة

(تابع)

يتكون النص الخبري عند ابن قتيبة من متن مقيد بإسناد، ويمكن اعتبار الإسناد تقليدا عربيا أصيلا أملته حاجة دينية محض تمثلت في التثبت من صحة الحديث النبوي بعد تفشي الوضع وانتشار البدع، ليتطور بعد ذلك ويصبح ملمحا هاما من ملامح الثقافة العربية، وخصيصة من خصائص الأمة الإسلامية، خاصة بعد ظهور علم أصول الحديث الذي اهتم بالإسناد اهتماما بالغا. ويكفي لبيان مركزية هذا المفهوم في الثقافة العربية الإسلامية أن نورد قول ابن سيرين: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم"[[1]](#footnote-1). فهذا القول يضفي على الإسناد مسحة دينية ترتفع به إلى درجة القداسة، حيث يجعله جزءا من الدين[[2]](#footnote-2). وبذلك تكرس الإسناد تقليدا عربيا أصيلا ظهرت تجلياته في كتب اللغة والتاريخ والتراجم والأخبار، حيث أصبحت جميع العلوم تعتمد الإسناد طريقة في عرض المعارف وتداول الأخبار، تفرضها العادة وتقاليد الرواية، وإن لم تدع لذلك ضرورة[[3]](#footnote-3). لقد أصبح الإسناد "فضيلة تميزت بها العربية وحدها قرونا متطاولة"[[4]](#footnote-4).

لقد مثل الإسناد مقوما رئيسا في تكوين بلاغة الخبر عند ابن قتيبة. فهو أحد الدعائم القوية التي تأسست عليها هيكلة النص الخبري لدرجة يمكن معها القول إن افتتاح الأخبار بالأسانيد غدت سنة يراعيها ابن قتيبة في الغالب تدليلا على صحة الخبر وتبرئة لذمته من تهمتي الوضع والتزييف. مما يدل على أن رواية الخبر عند ابن قتيبة خاضعة لشروط الرواية كما رسخها علماء الحديث. وإذا كان تواتر هذا المقوم في مفتتح الأخبار يشي بتبعية الرواية الأدبية عند ابن قتيبة لرواية الحديث، فإن عناية المؤلف بتفصيل المراتب التي وصلت إليه عن طريقها هذه الأخبار يشكل وجها آخر من وجوه التأثير الذي مارسته طريقة المحدثين في رواية الخبر الديني على رواية الخبر الأدبي عند ابن قتيبة.

**ب- مراتب التحمل:**

لقد تجسدت عناية ابن قتيبة بتفصيل مراتب تحمله للأخبار والمرويات في الحضور اللافت للعبارات المؤشرة على الطرائق المختلفة التي تبين كيفية وصول الخبر إلى المؤلف. وقد مثل السماع والإجازة والوجادة أبرز المراتب التي أخذ عبرها ابن قتيبة أخباره:

**ح- السماع:**

ينص ابن قتيبة على المرويات التي تحملها "سماعا" بصيغ : "سمعت" و"حدثني" و"حدثنا":

- " سمعت بعض أهل الأدب يقول .... "[[5]](#footnote-5).

- "قيل لميسرة الأكول و أنا أسمع ....."[[6]](#footnote-6).

- "حدثني أبو حاتم عن الأصمعي قال ..."[[7]](#footnote-7).

- "حدثنا القاسم بن الحسن قال ..."[[8]](#footnote-8).

تدل هذه الصيغ على أن الراوي الأخير (ابن قتيبة) قد اتصل بالوسائط التي يروي عنها اتصالا مباشرا فـ "سمع" منهم نقوله ومروياته. ولهذا السبب كان السماع أعلى مراتب التحمل عند المحدثين[[9]](#footnote-9). وإذا كان السماع يقتضي الاتصال المباشر بين راوي الخبر والمصدر الذي ينقل عنه، فإن ذلك لم يكن متيسرا في جميع الأحوال. ولذلك نقل ابن قتيبة بعض الأخبار التي تعذر عليه الاتصال المباشر بمصدرها عن طريق الإجازة.

**د- الإجـازة:**

نصادف في "عيون الأخبار" ثلاثة مواضع نص فيها ابن قتيبة صراحة أنه أخذ أخباره عن طريق "الإجازة". وقد افتتح خبرين من الأخبار الثلاثة بالعبارة نفسها: " وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه... "[[10]](#footnote-10). أما صيغة الخبر الثالث فقد حذف منها عبارة "من كتبه" فوردت على هذا النحو: "وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر..."[[11]](#footnote-11).

تستوقفنا هنا ظاهرة تستحق مزيد بيان، حيث نجد سلسلة الإسناد ذاتها التي تضمنت لفظة "الإجازة"، تخلو منها في بعض الأخبار. إذ ما أكثر النصوص التي يرويها ابن قتيبة عن الجاحظ من دون إشارة إلى أن الأخذ قد تم عن طريق "الإجازة"، فقد روى عنه في نفس الكتاب بعبارة "قال عمرو بن بحر..."[[12]](#footnote-12)، و بعبارة "قال الجاحظ..."[[13]](#footnote-13). فهل يعني هذا أن أخذ الرواية عن طريق "الإجازة" منحصر في الحالات التي يتم فيها التنصيص عليها؟، أم أنها تذكر حينا وتهمل حينا آخر تبعا لرغبة الراوي.

إن فك مغاليق هذه القضية لن يتيسر ما لم يتأسس بحثها على فحص دقيق للملابسات التاريخية التي أحاطت بقضية الإسناد في الثقافة العربية، وأن يترافق ذلك باستقصاء متأن ودقيق للقرائن النصية المتصلة بهذه الظاهرة في الأخبار والمرويات، لكن ذلك لا يمنع من أن نشير، فيما يخص نصوص ابن قتيبة الخبرية، إلى أنه ينص أحيانا على لفظة الإجازة في أسانيده، ولكنه يجنح أحيانا أخرى إلى إهمالها في كثير من المواضع وإن كان يأخذ عن نفس الراوي كما حدث مع الجاحظ. مما يرجح أن النص على الإجازة أو عدمه راجع إلى تقديرات الراوي. يؤكد ذلك أن هذه الأخبار سواء تلك التي نص ابن قتيبة على أخذها إجازة أو تلك التي لم ينص عليها، موجودة في كتب الجاحظ. وقد نسخها المؤلف بتغيير طفيف يمس الألفاظ ولا يمس البناء أو الشخوص.

إلى جانب الإجازة التي تقتضي راوي الخبر الحصول على إذن من ينقل عنه، فإن ابن قتيبة ينقل في أحيان كثيرة من الكتب مباشرة من دون أن يحصل على إذن أصحابها. وتعرف هذه الطريقة في رواية الأخبار بـ "الوجادة".

**هـ- الوجـادة:**

اختلف المحدثون في الوجادة، فبعضهم يترخص في العمل بها في رواية الحديث وبعض آخر لا يجيزها[[14]](#footnote-14). وفي مجال الأدب انقسم المؤلفون بين رافض للرواية عن طريق الوجادة ومجيز لها. يمثل الموقف الأول ابن سلام الجمحي الذي رفض نقل الرواية الأدبية عن طريق الوجادة ما لم يترافق بالقراءة على الشيخ. وهو ما يعرف عند علماء الحديث بـ"العرض"[[15]](#footnote-15). يقول ابن سلام:" وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته[...] وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء، أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي"[[16]](#footnote-16).

ويمثل الموقف الثاني عدد من رواة الأخبار منهم ابن قتيبة،حيث نصادف في بعض المواضع من "عيون الأخبار" "والشعر والشعراء" إحالات إلى كتب يذكر ابن قتيبة أنه ينقل منها "وجادة" مثل:"وجدت في كتاب لعلي بن أبي طالب..."[[17]](#footnote-17) -"وجدت في كتاب من كتب الروم..."[[18]](#footnote-18) -"وجدت في بعض كتبهم..."[[19]](#footnote-19).

وقد يستعمل ابن قتيبة فعل "قرأت" للتنصيص على النقول التي أخذها عن طريق "الوجادة" مثل: "قرأت في كتاب للهند..."[[20]](#footnote-20) -"قرأت في كتاب..."[[21]](#footnote-21) -"قرأت في بعض كتب العجم..."[[22]](#footnote-22) -"قرأت في كتاب رجل من الكتاب..."[[23]](#footnote-23). وأحيانا يسقط ابن قتيبة الألفاظ التي تدل على الوجادة، لكن يفهم من السياق أنه ينقل وجادة مثل:" وفي بعض كتب العجم"[[24]](#footnote-24) - "وفي كتاب للهند"[[25]](#footnote-25). وقد يستعمل للتأشير على النقل وجادة عبارة "نسخته"[[26]](#footnote-26).

وإذا كان ابن قتيبة يترك اسم الكتاب الذي ينقل منه غفلا، فإنه يعمد في بعض الأحيان إلى تعيينه: "قرأت في كتاب التاج"[[27]](#footnote-27) - "قرأت في اليتيمة"[[28]](#footnote-28) - "قرأت في الآيين"[[29]](#footnote-29) -"قرأت في كتاب كليلة ودمنة"[[30]](#footnote-30). وقد يؤخر التنصيص على الوجادة إلى نهاية الخبر ويؤشر عليه بفعل"ذكر" مردوفا بعنوان الكتاب: "…ذكر هذا الخبر أبو العباس المبرد في كتاب "الكامل"[[31]](#footnote-31).

والملحوظ أن الإسناد يتراجع في حال الوجادة أمام المتن، حيث يتقلص إلى حد الغياب؛ لأنه عندما يستهل الكاتب خبره بـ"وجدت في ... " فإنه يصرف بذلك النظر تماما عن رفع القول إلى قائله، ويكتفي بالإشارة إلى مصدره. ويترتب عن ذلك استقلال المتن بذاته وكأن السند لم يعد ضروريا لإكمال بنية الخبر.

إذا كان ابن قتيبة يجيز النقل عن الدفاتر والصحف فيما يتصل برواية الأخبار فقد كان يتحرج من ذلك عندما يتعلق الأمر برواية الدين والشعر. إذ يرى أن السماع، في هذه الحال، أسلم لأنه يمكن من تجنب التصحيف. يقول: "وكل علم محتاج إلى السماع. وأحوجه إلى ذلك علم الدين ثم الشعر، لما فيه من الألفاظ الغريبة، والصفات المختلفة، والكلام الوحشي، وأسماء الشجر والنبات، والمواضع والمياه"[[32]](#footnote-32). ومن أجل تأكيد هذا الرأي أورد ابن قتيبة بعضا مما يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر[[33]](#footnote-33) مع الإشارة إلى مواقع التصحيف في هذه الروايات وإثبات الرواية التي نقلت عن طريق السماع[[34]](#footnote-34).

لا شك أن اعتناء ابن قتيبة بالنص على الطريقة التي وصله عبرها الخبر يبين أنه يترسم طريقة المحدثين الذين يحرصون على تفصيل الطرائق التي تحملوا عن طريقها الخبر الديني. ومثلما اقتفى ابن قتيبة طريقة المحدثين في الإعلان عن طريقة نقل الأخبار، فإنه تأثرهم كذلك في التصريح بالصيغ المعتمدة في أدائها.

**و- صيغ الأداء:**

يكشف النظر إلى الطرائق المعتمدة عند ابن قتيبة في إسناد أخباره من منظور صيغ الأداء أنها جاءت بسيطة في الأعم الأغلب. إذ لا نصادف ثراء معجميا فيما يتصل بالإسناد، لأن الصيغ لا تكاد تخرج، في الأعم الأغلب، عن "أخبرني" و"حدثني". كما أن هذه الصيغ تفتقر إلى الصرامة لكونها لا تختص بمرتبة محددة من مراتب الأداء كما هو الأمر في كتب المحدثين، ولكن ينوب بعضها عن بعض، حيث "أخبرني" و"حدثني" و"قال" و"روى" و"ذكر"، كلها تفيد معنى واحدا هو السماع من راوي الخبر (= النقل مشافهة). ويبدو أن ابن قتيبة لم يكن يعتني بتدقيق هذه الصيغ؛ فهو يستخدم "قال" للنقل عن معاصريه مثل الجاحظ. ويستخدم نفس الصيغة للنقل عن علماء ماتوا قبله بأكثر من قرن من الزمن مثل عمر بن الخطاب[[35]](#footnote-35) وعبد الله بن مسعود[[36]](#footnote-36). مما يدل على أن ورود النقل بهذه الصيغة لا يعني أن ابن قتيبة ينقل مشافهة أو أنه سمع من الراوي. إن حرص المؤلف على تفصيل المراتب التي أخذ عن طريقها الأخبار والمرويات يفصح عن الدور الهام الذي اضطلع به السند في الكشف عن المسالك التي يقطعها المروي في رحلته من الراوي الأول وصولا إلى المؤلف (الراوي الأخير).

صفوة القول، إن إسناد الأخبار عند ابن قتيبة قد تلبس صورا مختلفة. ولذلك تعددت أشكاله وصياغته طولا وقصرا، حضورا وغيابا، كما تنوعت المؤشرات اللفظية الدالة عليه ما بين "حدث" و"أخبر" و"ذكر" و"روى" و"وجدت" و"قال ". مما يدل على مرونة الافتتاحيات التي تخص جنس الخبر؛ فافتتاح السرد في الخبر لا يخضع لطريقة بعينها كما هو الأمر في الخطبة التي تتقيد افتتاحيتها بالبسملة والحمدلة، أو المقامة التي تلتزم صيغة بعينها (حدثني عيسى بن هشام أو الحارث بن همام) وليس من شك أن المرونة التي ميزت افتتاحيات الخبر عند ابن قتيبة راجعة بالأساس إلى تنوع المصادر التي يأخذ عنها الراوي أخباره.

لقد حاولنا من خلال ما تقدم فحص مقومات الرواية الأدبية عند ابن قتيبة من أجل رصد بعض أوجه التماثل بين رواية الخبر الديني ورواية الخبر الأدبي في مستوى هيكلة النص وبنائه. وقد أسلمنا ذلك إلى حصر كثير من الوشائج بين المجالين؛ حيث أوضحنا أن ابن قتيبة يترسم طريقة المحدثين في إسناد الأخبار والمرويات. وقد تجسد ذلك في مراعاته قواعد الإسناد وعنايته بمراتب التحمل وصيغ الأداء . وهذا الحضور، وإن لم يشمل جميع الصور، فإنه دليل على تبعية الرواية الأدبية عند ابن قتيبة للرواية الدينية. وهو ما يدفعنا إلى مواصلة النظر في النصوص الخبرية عند ابن قتيبة من زاوية أخرى نتلمس خلالها السمات المهيمنة في هذه النصوص التي تميزت بالقصدية والوظيفية.

1. ـ صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت (د،ت)، ج 1، ص: 84. [↑](#footnote-ref-1)
2. - يقول عبد الله بن مبارك "الإسناد من الدين" - صحيح مسلم ص: 86 [↑](#footnote-ref-2)
3. - يقول عبد الله العروي في كتابه "مفهوم التاريخ" (ج1 ص:213)"الواقع أن الكتاب المسلمين[...] عمموا منهج التعديل وتمادوا في التعميم إلى حد أنه أصبح مدعاة للسخرية كما هو الحال في كتب الجاحظ والتوحيدي وفي قصص ألف ليلة وليلة. ومن لم يتقيد بالإسناد يعتذر عن ذلك كما يفعل ابن عبد ربه في مقدمة العقد الفريد [...] اتصال الإسناد لا ينفع ولا يضر في هذا المقام لماذا إذا الاعتذار؟ المشكل ليس أن يحذف الأديب الإسناد إذ لا غرض له في إثباته. كل المشكل أنه يظن أن كل كلام مهما كان مصدره وموضوعه يجب أن يسند". [↑](#footnote-ref-3)
4. ـ ابن سلام الجمحي، "طبقات فحول الشعراء" تح. محمود شاكر مقدمة المحقق ص: 44. [↑](#footnote-ref-4)
5. - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 2 ص: 128 لا يخفى أن هذا الشكل من الإسناد لا يعد " سندا " إلا تجوزا لأنه لا يظهر الحلقات الرابطة بين صاحب القول وراويه. [↑](#footnote-ref-5)
6. - نفسه ج 3 ص :170 [↑](#footnote-ref-6)
7. - نفسه ج 2 ص : 125 [↑](#footnote-ref-7)
8. - نفسه 1 ص : 194 [↑](#footnote-ref-8)
9. - " وهذا القسم [السماع] أرفع الأقسام عند الجمهور" مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، علق عليه أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة- دار الكتب العلمية - ييروت ط1 – 1995 ص: 98 [↑](#footnote-ref-9)
10. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 3، ص: 165/ ج 3، ص: 155. [↑](#footnote-ref-10)
11. ـ نفسه، ج 3، ص: 184. [↑](#footnote-ref-11)
12. ـ نفسه، ج 3، ص: 100، ج 3، ص: 166/ج 2، ص: 52. [↑](#footnote-ref-12)
13. ـ نفسه، ج 3، ص: 112/ ج 2، ص: 34. [↑](#footnote-ref-13)
14. - مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، ص: 117. [↑](#footnote-ref-14)
15. - نفسه، ص: 100. [↑](#footnote-ref-15)
16. ـ محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1ص: 4. [↑](#footnote-ref-16)
17. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، ص: 69. [↑](#footnote-ref-17)
18. ـ نفسه، ج 1، ص: 153. [↑](#footnote-ref-18)
19. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 2، ص: 807. [↑](#footnote-ref-19)
20. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، ص: 97. [↑](#footnote-ref-20)
21. ـ نفسه، ج 1، ص: 101. [↑](#footnote-ref-21)
22. ـ نفسه، ج 1، ص: 115. [↑](#footnote-ref-22)
23. ـ نفسه، ج 1، ص: 107. [↑](#footnote-ref-23)
24. ـ نفسه، ج 1، ص: 117. [↑](#footnote-ref-24)
25. ـ نفسه، ج 1، ص: 206. [↑](#footnote-ref-25)
26. ـ نفسه، ج 1، ص: 8. [↑](#footnote-ref-26)
27. ـ نفسه، ج 1 ، ص: 31. [↑](#footnote-ref-27)
28. ـ نفسه، ج 1، ص: 25. [↑](#footnote-ref-28)
29. ـ نفسه، ج 1، ص: 132. [↑](#footnote-ref-29)
30. ـ نفسه، ج 1، ص: 161. [↑](#footnote-ref-30)
31. ـ نفسه، ج 3، ص: 210. [↑](#footnote-ref-31)
32. - ابن فتيبة، الشعر والشعراء ج 1، ص: 88 [↑](#footnote-ref-32)
33. - نفسه، ج 1، ص: 90 [↑](#footnote-ref-33)
34. - نفسه ج 1، ص: 90 [↑](#footnote-ref-34)
35. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، ص: 209 [↑](#footnote-ref-35)
36. ـ نفسه، ج 1، ص: 241. [↑](#footnote-ref-36)